الاتجاه النفسي في قراءة الأدب

الدكتور، مولود بغورة
أستاذ النقد والبلاغة بجامعة الجزائر 2

إذا نظرنا اليوم إلى الساحة النقدية العالمية والعربية نجدها زاخرة بالاتجاهات والتوجهات النقدية بشكل لم تعهده من قبل، ولم تعرف له مثيلا، فأما الغربية فهي المنبع لهذه الاتجاهات بحكم التطور الحضاري الذي عرفته مجتمعاتها في جميع المجالات بما فيها مجال الأدب ونقده، وأما العربية فبحكم تفتحها على هذه الاتجاهات ومحاولة الاستفادة منها بشكل أو بآخر، قصد النهوض بالحركة الأدبية عامة والنقدية بصورة خاصة، وكان نتيجة لهذا أن توالت المناهج النقدية الحديثة في منظومة النقد العربي الحديث، واحتل التوجه النفسي مكانة معتبرة فيها، بعدما عرف الازدهار والتطور بشكل لافت للنظر في بلده الذي نشأ فيه، وهذه الورقة تحاول أن ترسم صورة وجيزة أو تقدم مقاربة لهذا الاتجاه النقدي وترصد منابعه وتطوره وتبين تجلياته في النقد العربي الحديث.

يذكر تاريخ الأدب أن أعمالا أدبية أو دراسات أدبية يونانية قديمة قد عرفت ظاهرة النقد، فالشاعر أرسطو فانيس في مسرحيته **ملهاة الضفادع**، قد كان ناقدا عندما عقد موازنة بين الشاعرين الكبيرين إيسخيلوس ويوريبيدس، ورأى أن الأجدر بالاستفادة من شعره هو الشاعر إيسخيلوس لكونه شاعرا محافظا، يتميز شعره بالأصالة والمحافظة على قيم المجتمع اليوناني في عصره الذي شهد انحلالا خلقيا.

أما أفلاطون وأرسطو، فقد خاض كل منهما في مجال النقد الأدبي، وسجل آراء ونظريات ما تزال أصداؤها في البحوث والدراسات الأدبية إلى يومنا هذا.

فأفلاطون قد تحدث عن نظرية الفن عموما وعن الشعر خاصة، وذهب إلى أن الفن محاكاة للطبيعة، أو تقليد لها ولكنه بعيد عن الحقيقة بدرجات، وبين أن ((الغاية النهائية من الشعر هي التأثير النفسي)).[1]

وانطلاقا من هذا ذهب إلى أنه لا ينبغي الاطمئنان إلى أقوال الشعراء، بل حذر من إفساد الشعر عقول الشباب إذا تناول هذا الشعر موضوعات بطريقة تتنافى ومعتقدات المجتمع

اليونـاني آنـذاك ذات البعـد الميثولـوجي، أو الأسـطوري، وكـان نتيجـة موقفـه هـذا أن نفـى الشعراء من جمهوريته الفاضلة.

أمـا أرسـطو الـذي يعـد معلـم النقـد الأدبـي كمـا يعـد معلـم الفلسـفة- طبعـا- فقـد ألـف كتـابين هـامين نظـر فيهمـا لـلأدب، بشـكليه الشـعري والنثـري، وهمـا كتـاب فـن الشـعر، وكتاب الخطابة.

أمـا كتـاب فـن الشـعر فقـد سـاق فيـه أفكـارا نقديـة جـادة، تتعلـق بالأجنـاس الأدبيـة وخصائصـها وبمصـطلحات نقديـة، منطلقـا في ذلـك مـن نظريـة المحاكـاة الـتي سـبق إليهـا أفلاطون، ومن تأمله الفلسفي، ومن واقع الحركة الشعرية والأدبية في زمانه وقبله، ولا شك أنه قبل أن يستنبط ما استنبطه من نظريات وضع بين يديه شعر الشعراء، وفي مقدمتهم شعر هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسة.

من النظريات النقدية التي توصل إليها متأثرا بما سبقه أن الفن محاكاة للطبيعة ولكن ليس محاكاتها كما هي، وإنما كما ينبغي لها أن تكون، وبذلك سما بوظيفة الأدب إلى درجة الإبداع وأعاد للشاعر مكانته، وأخرجه من كونه مجرد مقلد. هذا من جهة ومن جهة أخرى قد حدد وظيفة الشعر تحديدا يكشف عن علاقته بالنفس عندما ذهب إلى أن وظيفته هي تطهير نفسية المتلقي من العواطف الزائدة قصد إعادة التوازن إليها.

وهكذا لا يخفى ما لهذه الفكرة من عمق الدلالة على توجه النقد في اتجاه خبايا النفس الإنسانية، كما يدل هذا على قدم الإشارات النفسية في التنظير للأدب ونقده. وسوف تشهد هذه الإشارات تطورات هامة تصبح معها الدراسات النفسية للأدب ممنهجة ومعلمنة.

أما في تراثنا العربي البلاغي والنقدي فإننا نجد أيضا صورا ومواقف ولمحات من النقد النفسي عند الناقد ابن أبي عتيق مثلا في نقده لشعر عمر بن أبي ربيعة الذي وصفه بأنه يتصل بالقلوب ((لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب وعلوق بالنفس..)).[2] كما وجدنا الناقد ابن قتيبة يتحدث عن منهج القصيدة العربية ويذكر الأثر النفسي لاستهلالها بالوقوف على الأطلال، والغزل، في نفسية المتلقي قائلا: ((ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب)).[3] حتى يقول عن أقسام القصيدة وما لها من تأثير نفسي: ((ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد)).[4]

ونجد الإشارة إلى التأثير النفسي للشعر في قول ابن طباطبا حين ذهب إلى أن بالشعر تدفع العظائم وتسل السخائم وتخلب العقول وتسحر الألباب لما يشتمل عيه من دقيق اللفظ ولطيف المعنى...[5] وأن طبيعة الشعر هي التعبير عما في النفوس ((وليست تخلو الأشعار من أن يقتص فيها أشياء هي قائمة في النفوس والعقول فيحسن العبارة عنها وإظهار ما يكمن في الضمائر منها فيبتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه وقبله فهمه فيثار بذلك ما كان دفينا، ويبرز به ما كان مكنونا، فينكشف للفهم غطاؤه، فيتمكن من وجدانه بعد العناء في نشدانه..))[6]

إنه هنا يكاد يحلق في سماء النظريات النقدية الحديثة التي تذهب إلى أن الأدب تعبير عن النفس، والقائلة بنظرية التلقي التي ترى أن المتلقي أو القارئ يتفاعل مع العمل الأدبي ويتأثر به ويتحرك وجدانه معه. والمهم هو أن الظاهرة النفسية مسجلة بوضوح في كثير من آراء النقاد العرب القدامى.

وفي نفس السياق نجد في النقد الأندلسي المغربي وقفات نقدية نفسية نشير إلى بعضها توخيا للاختصار وهي أن ابن شهيد قد أشار إلى أهمية الطبع وأثره في البيان ((وطبع الإنسان متركب من نفس وجسم، فغلبة الأولى على الثاني تجعل المرء مطبوعا روحانيا.. وهاهنا مقياس للروحانية التي يفترضها ابن شهيد، وهو أن كل ما يصدر عنها يكون موشحا بالحسن وإن لم يكن مبنيا على غرابة..))[7]

وفي تصور حازم القرطاجني أن وظيفة الشعر نفسية لكونه يحقق مبدأ اللذة، ويؤثر في المتلقي.

أما الفلاسفة العرب فقد أولوا الجانب النفسي في الشعر عناية كبرى منها أن وظيفة الشعر تكمن في تحقيق الجانب الإمتاعي، وتحريك نفسية المتلقي. يقول ابن سينا:((وذلك لأن النفس تنبسط وتلتذ بالمحاكاة فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها الأمر أفضل موقع)) ((والمخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار)).[8]

((والقول الصادق إذا حرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس، فربما أفاد التصديق والتخييل معا)).[9]

وابن سينا حين يتحدث عن التشبيه يرى أن إعادة تنسيق عناصر الصورة التشبيهية وفق حركة النفس وبشكل يختلف عن نسقها في الواقع العياني المرصود، عن طريق ابتكار واكتشاف العلائق المناسبة الخفية الغريبة بين طرفيها، يحدث في النفس شعورا باللذة)).[10]

وعلى مستوى البلاغة العربية وهي شديدة الصلة بالنقد- إن لم نقل هي النقد ذاته- نجد إشارات نفسية كثيرة وما ربط الأساليب بالحال أو المقام أي بحالة المتلقي النفسية إلا دليل على ذلك، والصور البلاغية كثيرا ما فسرت ببعدها النفسي وقد بنى عبد القاهر الجرجاني نظريته النظمية المؤسسة على علم النحو وفق المنطلق النفسي أي أن المعاني عنده كامنة في النفس أولا ثم تأتي العبارة لتجسدها والصياغة لتدل عليها إلى درجة يصح معها أن نعتبره قد اكتشف شيئا جديدا وهو النحو النفسي، أو علم المعاني الذي هو علم الأحاسيس كما نلحظه في كتاب دلائل الإعجاز، ومن يقرأ أيضا كتابه أسرار البلاغة يجده يتوغل بعمق في عوالم نفسية، منها مثلا حديثه عن بنية التشبيه وأثرها النفسي في المتلقي فأحسن التشبيهات ما ربط بين الأشياء المتباعدة، لتنقلها من العادي المألوف إلى الجديد المبتكر الذي تهتز له النفس وتكتشفه بعد جهد لأن الشيء إذا نيل بعد الطلب يكون وقعه في النفس أحلى فأنت ((إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد، كانت إلى النفوس أعجب،وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب)).[11]

وذلك كله لأنه ((من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف)).[12]

وفي عصرنا الحديث تعود من جديد محاولة الربط بين البلاغة وعلم النفس إذ يجتهد أمين الخولي في ذلك في مقال له بعنوان: البلاغة وعلم النفس عام 1939 وفيه يشير إلى أن الصلة بين العلمين قديمة إلا أن قدماءنا لم يربطوا الصلة بينهما فقد ((اتصلت البلاغة بعلم النفس قديما اتصالا وثيقا، ولو لم يلمح القدماء هذه الصلة، أو يرتبوا عليها أثرها)).[13]

والحقيقة هي ما أشار إليه الخولي إذ أن القدماء نقادا وبلاغيين قد قدموا ملاحظات نفسية وهم يتحدثون عن بلاغة الكلام فربطوا بين الخطاب وحالة المخاطبين النفسية، كما عند عبد القاهر مثلا، وإن كانوا لم يتخذوا من علاقة النفس بالبلاغة منهجا علميا واضحا، بل اكتفوا بالملاحظات العابرة من حين لآخر في تفسير الأقوال الشعرية وغيرها. وقد رأينا هذا في الأسطر السابقة.

وبعد الحديث عن هذا المنحى النفسي قديما نستطيع أن نجد تطورا واضحا في تفسير الأدب في ضوء معطيات علم النفس ونظرياته، فنحن نستطيع أن نلج إذن عالم النقد النفسي الفسيح الذي هيمن بكل جدارة على تقييم الظاهرة الأدبية لمدة طويلة من الزمن انطلاقا من

القرن التاسع عشر في العالم الغربي، هذا القرن الذي شهد تحولا عجيبا نتيجة النهضة العلمية التي انعكست آثارها على الحركة النقدية والفكرية عامة، ومنها التنبه إلى عالم النفس الإنسانية ومحاولة فهم مكوناتها وأسرارها وبالتالي وضع الأسس لعلم جديد أطلق عليه علم النفس، متزامنا مع علم الاجتماع، وعلوم أخرى في الطبيعة وغيرها.

كان إذن من نتائج النهضة العلمية والفلسفية والفكرية أن نهضت علوم أخرى تتصل بالإنسان، فظهر علم النفس وعلم الاجتماع وتطور علم التاريخ... وعلم اللغة، أو اللسانيات.

وكان في طليعة علماء علم النفس الطبيب النمساوي سيغموند فرويد 1856- 1939 الذي انطلق من الطب ليذهب إلى عالم الأدب توخيا لتطبيق نظرياته العلمية النفسية في مجال الأدب والفن، ففتح بذلك الطريق للتحليل النفسي للأدب وللدراسات العلمية على أسس نفسية بهدف ترسيخ نظرياته في اللاوعي وفي الشخصية، والاهتداء إلى علاج نفسي لأمراض لاحظها في سلوك الشخصيات المريضة التي تقصد عيادته للاستشفاء. فكان الأدب والفن في كل هذا أفضل مساعد له على فهم نفسية الإنسان لاعتبارات منها اتصال الأدب والفن بالنفس، وصدق تعبيرهما عن المشاعر والأحاسيس. ومن ثم فإن أهم الأعمال الأدبية والفنية شكلت مجالا خصبا للدراسة والتحليل النفسي. نذكر على سبيل المثال دراسة فرويد لشخصية الفنان الإيطالي ليوناردو دي فانشي منطلقا من ذكرى احتفظت بها مفكرته عن طفولته الأولى[14]، ودراسته لشخصية دوستويفسكي 1821/1881 الروائي، التي كشف عن أسرارها[15]، منطلقا من الصراع العصابي الذي كان يلم به في نوبات. كما تناول بالدراسة مسرحيات شكسبير، ومسرحيات يونانية كمسرحية أوديب مثلا وغيرها من الأعمال الروائية والشعرية. ومن هنا فأعمال فرويد ودراساته التي قام بها قد وفرت معالم منهج نفسي متكامل، للتعامل مع الآثار الأدبية لأن صاحبها اعتنى فيها بعملية الإبداع والخلق وبالبطل وبالرموز وبالقارئ)).[17]

وقد ازدهر هذا الاتجاه النقدي النفسي في الدراسات النقدية الغربية واعتمد في تحليل النصوص الأدبية مستهدفا الكشف عن حياة الأدباء النفسية، من خلال أعمالهم الأدبية أحيانا، وأحيانا كان النص يفسر على ضوء المعرفة بأحوال الأديب وظروفه ومرحلة طفولته وما مر به من أحداث جعلته يسلك سلوكا معينا قد يكون في صورة عقد نفسية مؤثرة تتجلى تأثيراتها في إنتاجه الأدبي.

ومن الأمثلة على هذا أيضا نجد من تلامذة فرويد الذين قاموا بتطبيق منهجه بشكل منظم ودرسوا المعاني والدوافع اللاشعورية للكاتب **أرنست جونس** في إنجلترا الذي قام عام

1910 بدراسة مسرحية هاملت ليكشف غموضها عن طريق عقدة أوديب، ونجد **فردريك كلارك** في أمريكا الذي قام عام 1916 بدراسة حول علاقة الشعر بالأحلام، وهكذا يمكن تلخيص هذه الدراسات النفسية في كونها عموما تبحث في الدلالات الرمزية للاوعي.

وما يكتنف هذه الدراسات من عيب هو أنها تنظر إلى العمل الأدبي على أنه وثيقة معرفية ووسيلة لغاية أخرى، وأهملت الجانب الفني للعمل الأدبي وهو ما يستدركه أحد تلامذة فرويد صاحب الرؤية الجديدة وهو الناقد الفرنسي **شارل مورون** 1899/1966الذي قدم دراسة للشاعر **مالارميه** تحت عنوان مدخل إلى التحليل النفسي للشاعر مالارميه. وفيه كرس شارل مورون جهده للحديث عن منهج نقدي أدبي مستلهم من التحليل النفسي والذي أنهاه سنة 1963.

ويأتي هذا قبل البحوث التي أجريت حول: نرفال، راسين، بودلير، وآخرين، وهو يركز في هذه الدراسة على الصورة الاستعمارية المهيمنة، ليكشف عن الشبكة السارية من نص إلى نص آخر.[18]

فشارل مورون إذن محلل نفسي نقل الاهتمام من التحليل النفسي العام إلى التحليل النفسي للأدب، متأسيا بنظرية فرويد في تفسيره للأحلام، وبتطبيقاته التي أجراها على أعمال أدبية وخاصة مسرحية أوديب، ومسرحية هاملت، الذي رأى أنه يمكن تفسيرهما في ضوء نظرية واحدة هي عقدة أوديب المشهورة، فشارل مورون اهتم بالأعمال الأدبية واتخذها موضوعا لتحليلاته النفسية، فهو قد وضع أداة التحليل النفسي في خدمة النقد.[19]

وقام كما سبق الذكر بدراسة قصائد مالارميه وفك رموزها عن طريق توضيح النصوص بعضها ببعض. إذ بدا له- أمام شبكات الاستعارات التي كان يكشفها أن المبادئ الفرويدية في تأويل الأحلام هي وحدها التي تسمح له بالمضي قدما في فهم العمل الأدبي ورهاناته الحيوية. ولقد استطاع مورون وهو يتلمس طريقه بين مالارميه وفرويد أن يبدع منهجه الخاص ومفرداته النقدية، ومن هذه المفردات نذكر: مصطلح النقد النفسي الذي وضعه عام 1948، وبالتالي يمكن القول إنه مبتكر منهج دقيق يشبه إلى حد كبير إجراءات الممارسة التحليلية ولكنه لا يتطابق معها[20].

ولا شك أن جهده النقدي هذا قد تجسد في تحليلاته التي قام بها حول مالارميه كما سبقت الإشارة، وراسين وبودلير ومولييير وفاليري وهوغو وغيرهم.[21]

ولعله من المفيد عرض- ولو بشكل وجيز- أهم المراحل التي كان يعتمدها في تحليلاته النفسية للأدب كما يلي:

(- المطابقات: تسمح ببناء العمل الأدبي حول شبكات من التداعيات

- استخراج التشكيلات التصويرية والمواقف الدرامية المرتبطة بالإنتاج الهرمي

- تكون وتطور الأسطورة الشخصية التي ترمز إلى الشخصية اللاواعية وتاريخها

- دراسة معطيات السيرة الذاتية التي تساعد على التحقق من التأويل، لكنها لا تأخذ أهميتها ومعناها إلا من خلال قراءة النصوص)[21].

والنتيجة التي نخلص إليها حول مورون أنه حاول بجهده النقدي علمنة النقد وتحويل الدراسة النفسية إلى داخل النص بدل النظر إليه من زوايا خارجية عنه كالأحوال الشخصية أو ما إلى ذلك، ومن ثمة يكون قد خرج عن المنهج التقليدي وذلك لأنه ((لا يلجأ إلى إرشادات عن الأديب خارج النص الأدبي يفهمه بمقتضاها وإنما يقتصر على بنية النص ذاته وعلى اكتشاف وقائع وعلاقات فيه لم تلق في المنهج التقليدي حظها من العناية لأنها تنبع أساسا من الذات الباطنية للمبدع، وإذا هو أجاز لنفسه استعمال وثائق أخرى فليطلب منها الدعم لما اكتشفه من النص الأدبي)).[22]

ونقف عند ناقد آخر قدم جهودا في التحليل النفسي وهو الناقد أ، أ، **ريتشاردز** الذي قال عنه الدكتور فايز إسكندر: ((وهكذا يؤسس ريتشادز أفكاره على قواعد سيكولوجية، فالفن في اعتقاده يعمل على تنسيق الدوافع المتعارضة المتشابكة في نفس الإنسان، وتحرير الدوافع المكبوتة التي فرض عليها الإحباط فرضا، ووضع هذه الدوافع جميعا على درجة من الاتساق والنظام والتوازن)).[23]

انطلاقا من هذه القواعد نراه يعالج قضايا الإبداع الفني والشعري في محاور نذكر منها ما يلي: فوضى النظريات النقدية وفيها يقول: إن مشكلة النقد الأدبي، أو بالأحرى مشكلة الناقد الذي يتصدى للحكم على الآثار الفنية والأدبية، إنما تكمن في البحث عن القيمة النابضة في تجربة مثيرة خلال قراءة قطعة من الشعر، وعن السبب في كون هذه التجربة أفضل من غيرها، وعن الدوافع التي تجعل استحسان لوحة فنية أمرا واجبا وعن السبل المثلى التي تتيح نتاجا غنيا خلال الاستماع إلى مقطوعة موسيقية)).[24]

واضح من خلال هذا القول كيف أن الناقد يهدف إلى علمنة النقد الأدبي الذي يقوم على الأسس النفسية إنقاذا له من الخلط والفوضى في التقويم والحكم.

وهكذا يواصل **ريتشاردز** حديثه عن النقد المستند إلى الأسس النفسية فيبين القيمة الجمالية تحت عنوان "وهم الحالة الجمالية"، ويتحدث عن مشكلة التخاطب عند الفنان، ومسألة القيمة في العمل الفني، ومعنى القيمة، ونظرية سيكولوجية في القيمة، وعلاقة الفن بالأخلاق... وتحليل التجربة سيكولوجيا، وقضية المتعة والانفعال والذاكرة والاتجاهات...[25]

هذا- باختصار شديد- عند الغرب، فأما عند العرب فلاشك- أولا- أن التأثير والتأثر بين الحضارات أمر لا نقاش فيه، ويكفي أن نستدل عليه في مجال الأدب بما عرفته الحضارة العربية الإسلامية والحضارة اليونانية من تفاعل وتمازج، حيث لوحظ بعض تأثر النقد العربي بالنقد والبلاغة اليونانية، وهذا نعرفه من خلال كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، ومن خلال البحوث البلاغية كفكرة المقام والحال الواردة في كتاب الخطابة لأرسطو، ولا يعد هذا التأثر عيبا في نظري بل يعد ثراء وإثراء، إذ أنه لا يمكن لأية حضارة في القديم أو الحديث أن تعيش في معزل عن بقية الحضارات الأخرى.

وفي يومنا هذا نلحظ هذه الظاهرة بشكل واضح في مجال النقد الأدبي الحديث، فإذا كانت الساحة النقدية العالمية قد عرفت تطورا مذهلا لم يسبق أن عرفته من قبل فإن هذا التطور انتقل فعلا إلى ميدان نقدنا الأدبي الحديث.

وظهرت عندنا اتجاهات ونظريات تبناها النقاد العرب المحدثون، واستفادوا مما توصل إليه الغرب، فكان الاتجاه النفسي واحدا من هذه الاتجاهات، فكيف فهم هذا الاتجاه، وكيف وظف كمنهج نقدي، ومن بادر إلى استعماله؟ وما مدى فعاليته؟

هذه بعض الأسئلة التي تحاول هذه الأسطر الإجابة عنها بإيجاز.

يعد طه حسين ظاهرة أدبية قل نظيرها في الوطن العربي، فقد خاض في مجالات أدبية شتى وأضفى على الأدب لمسات مطبوعة بطابعه الخاص، فهو مبدع، وهو ناقد، كتب في الإبداع، القصة القصيرة والرواية، وكتب مقالات وألف كتبا نقدية وترك دراسات ما تزال تزخر بها رفوف المكتبات في الوطن العربي وخارجه.

كان طه حسين سباقا إلى التأثر بالثقافات الأجنبية وخاصة الفرنسية بحكم دراسته في فرنسا، وكان متمكنا من الثقافة اليونانية، فراح يشرح بعض مزاياها ويلفت الأذهان إلى خصائصها وقيمها، وانعكس كل هذا على توجهاته النقدية، كما سنرى.

كان طه حسين ناقدا من الطراز الأول، استوعب الثقافة العربية القديمة، وهضمها جيدا وتمثل ثقافة الآخر أحسن تمثل، وفتح صدره لاستقبالها ومن ثم نشرها، وتبنيها، ويتجلى هذا بشكل كبير في منهجه النقدي، فقد كان يتعامل مع الخطاب الأدبي وفق منظور تاريخي علمي تارة، ووفق منظور لغوي تقليدي تارة أخرى، ووفق منظور نفسي كما سنوضح الآن.

نقده النفسي:

التفت طه حسين إلى التراث الأدبي القديم شعره ونثره وشرع في تفهم أسراره وقضاياه، ومن بين الشعراء الذين درسهم نذكر الشاعر الفذ المتنبي، والمعري وابن الرومي. أما المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، فقد تناوله طه حسين في بعض دراساته من منطلق المنهج النفسي، الذي اتخذه وسيلة للكشف عن شخصيته، من خلال أشعاره، يبحث طه حسين في نشأة المتنبي وفي العوامل المؤثرة في نفسيته انطلاقا من نسبه إلى طفولته إلى صباه، ثم يذهب إلى الحديث عنه وهو متصل بالقرامطة في منطقة الصحراء حيث القرامطة ثائرون مما يتناسب ونفسيته الثائرة. ويحلل طه حسين قصيدة ((أرق على أرق ومثلي يأرق)) تحليلا نفسيا ومطلعها كما يلي:

أرق علـــى أرق ومثلـــي يـــأرق وجـــوى يزيـــد وعـــبرة تترقـــرق

((فالشاعر في هذه الأبيات يتغنى كما ترى غناء غامضا بعواطف مبهمة، وإن ظهر منها أنها العشق ولكن هذا الغناء صادق اللهجة قوي النغمة، يصدر عن قلب حزين وينتهي إلى القلوب فيثير فيها الحزن والأسى، فأرق الشاعر متصل، يقفو بعضه أثر بعض، والشاعر يقرر ذلك ولا ينكره، لأنه يرى أن مثله خليق أن يأرق.)).[26]

ولم يقف طه حسين عند المتنبي فحسب وإنما تناول المعري أيضا وسلط الضوء على ولعه بالتلاعب اللفظي مبينا دلالة ذلك على نفسيته. يقول: ((ونظر أبو العلاء فرأى نفسه بين هذه الألفاظ التي لا تكاد تحصى... وبين هذه المعاني والآراء التي لا تكاد تحصى أيضا ولم يجد معه إلا هذه المعاني وتلك الألفاظ، ثم نظر فوجد أوقات فراغ طويلة لا يطاق احتمالها ولا

يمكن الصبر عليها. فما قيمة ما حفظ من اللغة، وما قيمة ما حصل من العلم، إذا لم يعيناه على قطع أوقات الفراغ هذه؟)) [27]

وكما ذهب طه حسين في هذا الاتجاه النفسي وحاول فهم شعر أبي الطيب في ضوء ما اعتوره في حياته من أحداث، وما عرفه في طفولته من ألوان التعامل نرى أيضا العقاد- وكان معاصرا له- يسير في هذا الاتجاه النقدي النفسي بل ربما أكثر من طه حسين تعمقا في البحث واستقصاء للحياة الداخلية للشاعر استنادا إلى المعطيات النفسية، فقد تناول ابن الرومي في كتاب له بعنوان: ابن الرومي، حياته من خلال شعره، وتتبع ظاهرة استقصاء المعاني عند هذا الشاعر محاولا تقديم تفسير نفسي لها، يقول: ((ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومي وشذوذ أطواره من شعره أو من غير شعره، فإن أيسر ما تقرأه له أو عنه، يلقي في روعك الظنة القوية في سلامة أعصابه واعتلال صوابه ثم يشتد بك الظن كلما أوغلت في قراءته والقراءة عنه... حتى ينقلب إلى يقين لا تردد فيه)).[28] والمهم في هذا الكتاب أنه يقدم دراسة نفسية لمعالم شخصية ابن الرومي.

وتناول أيضا شخصية أبي نواس من خلال شعره وحاول أن يحللها وأن يسبر أغوارها النفسية، انطلاقا من كلمات مفتاحيه نفسية ومن نظريات علم النفس. وما توصل إليه من رؤى تمس الحقل النفسي للإنسان، ومنها نظرية النرجسية التي تعني في نظر علماء النفس حب الذات، إلى درجة كبيرة تصبح معها هي محور كل شيء، تنظر إلى الأشياء وإلى العالم كله من خلالها، يقول عن أبي نواس: ((وهذه الشخصية النموذجية غير شخصية أبي نواس... هي شخصية نرجسية باصطلاح النفسيين المحدثين. على أن تفهم النرجسية فهما يخالف تعليلات فرويده وتعميماته)).[29]

فالنرجسية ليست طورا طبيعيا من أطوار العمر يمر به كل إنسان، ولكنها آفة نفسية تولد مع صاحبها في رأي بعض النفسيين وتنشأ من التربية البيتية وعوارض المعيشة الاجتماعية في رأي آخرين.[30] ويقول أيضا: ((فالنرجسية التي نتتبع أعراضها في الحسن بن هانئ ليست حالة طبيعية تلاحظ على أنداده وفي مثل عمره. ولكنها حالة منحرفة ولد ببعض أعراضها وجاءته الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذي نشأ فيه وعاش فيه سائر حياته)).[31]

والمهم أنه حاول إن يلقي الضوء على نفسية هذا الشاعر مستعملا أدوات علم النفس ومطبقا أفكاره التي توصل إليها فرويد وغيره من علماء النفس، وفي مقدمة هذه النظريات- كما أشرنا- النظرية النرجسية التي أثرت في شهرته دون سواه من شعراء زمانه، وأثرت على

إنتاجه الشعري فصبغته بصبغتها ولونته بلونها، فتجلى ذلك في كثير من الأبيات والقصائد التي راح العقاد يفسرها على ضوئها. يقول بهذا الشأن: ((وهذا ما سنبدؤه في الفصل التالي بالكلام على سريرته النفسية: وهي السريرة النرجسية،))[32] ويعتبر أن النرجسية كفيلة بتفسير آفات أبي نواس جميعا، الآفات الكبرى والآفات الصغرى، التي تتفرع عنها[33].

وهكذا ربط العقاد بين شعر أبي نواس وبين ما استفاد من علم النفس لعله يكشف عن مزيد من عوالم هذه الشخصية النرجسية المزدوجة، ويرى أن الأجدر تفسير شعره الغزلي والنسكي تفسيرا نفسيا.[34]

وخلاصة القول هنا إن الدراسات النقدية المبكرة للعقاد وطه حسين، التي تناولا فيها شخصيات بعض الشعراء القدامى كانت تسترشد في فهم هذه الشخصيات ببعض الحقائق النفسية في رسم صور صادقة لهؤلاء الشعراء... وأن معالم هذا المنهج بدأت تتضح أكثر عندما قدم العقاد دراسته حول أبي نواس السابقة الذكر، واعتبر النرجسية مفتاح تلك الشخصية الشاذة في تصرفاتها وفي شعرها.[35]

ومن بين الدارسين الذين تعمقوا في دراسة الشعر وفق الاتجاه النفسي في نقدنا الحديث، الناقد محمد النويهي في دراسته لشخصية بشار بن برد التي قدمها سنة 1951 وقد ((أخضع هذا الشاعر للاستبارات النفسية الدقيقة: إذ كشف عن عوامل التركيب النفسي لشخصية بشار، وأشار إلى العوامل الوراثية المتأصلة في لاشعوره، ثم بحث في الأحوال المزاجية للشاعر...)).[36]

وهو في هذا يشبه إلى حد كبير ما قدمه العقاد عن أبي نواس ولكن النويهي أكثر تعمقا، ونجده لا يكتفي بهذه الدراسة بل يتناول شخصية أبي نواس تحت عنوان نفسية أبي نواس ويقدم تحليلا نفسيا لها بهدف فهم شعره.[37]

يقول محمد أوكان عن النويهي: ((وفي كتابه "نفسية أبي نواس" 1953 طور النويهي أدوات التحليل النفسي لديه، ووظف مفاهيم متنوعة من علم النفس العام وعلم النفس التحليلي، وتحدث عن عقدة أوديب واللاشعور الجمعي لا سيما في تفسيره لمبدإ تعظيم الخمرة عند أبي نواس إلى درجة عبادتها في صورة معبود فتيشي تتعلق به الذات)).[38]

وأخيرا يمكن أن نشير إلى دارس آخر ممن أعجبوا بهذا المنهج واعتمده طريقا لدراسة الأدب ونقده، وهو الناقد عز الدين إسماعيل الذي ألف كتابا خاصا في تفسير الأدب في ضوء علم النفس معنون بـ"**التفسير النفسي للأدب**"، وفيه تناول قضايا الإبداع الفني، وما يتعلق بالفن ومشكلات الفنان، كالعصاب، والنرجسية، والعبقرية، وبالشعر وخصائصه الفنية كالموسيقى والصورة الشعرية، ولم يفته أن يعالج بعض الأعمال المسرحية، كمسرحية هاملت لشكسبير... وبعض

الأعمال الروائية كرواية الإخوة كرامازوف لدستويفيسكي. كما أنه ألف كتابا آخر تحدث فيه عن الأسس الجمالية في النقد العربي. حلل فيه الاتجاه النفسي في دراسة الأدب في موضعين. الأول عندما تحدث عن الأسس الجمالية للنقد، واعتبر الأساس النفسي واحدا من هذه الأسس واستنتج في آخر تحليله ((أن النقد الفني القائم على التحليل النفسي ليس نقدا جماليا بالمعنى الدقيق أو بالمعنى العام، لأنه لا يأخذ على عاتقه عبء التقويم)).[39]

الثاني: عندما تحدث عن الأسس الجمالية في النقد العربي فذكر أنه إذا رجعنا إلى النقد العربي وجدنا صورا لفهم الموقف النفسي بالنسبة للحكم النقدي، وأشار إلى مقولة ابن طباطبا في هذا السياق وإلى كثير من النقاد والبلاغيين.[40]

وهكذا تواصل الاهتمام بالبعد النفسي تنظيرا وتطبيقا في نقدنا العربي الحديث وكان موضوعا لدراسات متعددة ومتباينة، أكاديمية وغير أكاديمية مستقلة خاصة، ومدمجة ضمن دراسات عامة وما يزال هذا الاتجاه النقدي يفرض نفسه على الساحة النقدية الغربية والعربية سواء بوصفه منهجا نقديا مستقلا، أو مضمنا في دراسات ومناهج نقدية أخرى.

الهوامش:

(1) عالم الفكر ع3، ص203

(2)كتاب الأغاني، الأصفهاني، 108/1

(3) الشعر والشعراء، ابن قتيبة 14،15

(4) نفسه ص 15

(5) عيار الشعر، ابن طباطبا ص 121

(6) نفسه، ص120

(7) تاريخ الأدب الأندلسي- عصر قرطبة- إحسان عباس، ص143

(8) فن الشعر، أرسطو، تر: عبد الرحمن بدوي، ص 161

(9) نفسه ص 161

(10)الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيوت، لبنان، ط1، 1984، ص 164

(11) أسرار البلاغة،عبد القاهر الجرجاني، ص109

(12) نفسه ص118

(13) مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، ط1، 1961، ص 179

(14) في مناهج الدراسات الأدبية، حسين الواد، ص 5

(15) نفسه ص5

(16) نفسه ص5

(17) في مناهج الدراسات الأدبية، حسين الواد، ص 43،44

(18)Charles Mauron; introduction à la psychanalyse de Mallarmé; éditions de la baconnière; neufchâtel (suisse)1968

(19) مدخل إلى مناهج النقد الأدبي،ص 97

(20) نفسه ص 97

(21) نفسه ص 97

(22) في مناهج الدراسات الأدبية، ص 44، انظر أيضا مناهج النقد الأدبي المعاصر، سمير سعيد حجازي ص110 وما بعدها

(23) النقد النفسي عند رتشاردز، تر: فايز اسكندر، إشراف: رشاد رشدي، مكتبة الأنجلو- المصرية د ط، د ت ص 3

(24) نفسه ص3 وما بعدها.

(25)نفسه ص3 وما بعدها

(26)المذاهب النقدية، ماهر حسن فهمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة ندت، دط. ص، 166

(27)نفسه ص، 170

(28)ابن الرومي: حياته من شعره، العقاد ص 126، 129

(29)نفسه ص68

(30)نفسه ص 68

(31)نفسه ص 68

(32)أبو نواس الحسن بن هانئ، العقاد، ص 30

(33)نفسه ص 33

(34)نفسه ص 154

(35)التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، ص 15

(36)النص والمنهج، محمد أديوان، ص 111

(37)التفسير النفسي للأدب، ص15

(38)النص والمنهج، ص 111

(39)الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل ص114

(40)نفسه ص 201 وما بعدها

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو نواس الحسن بن هانئ، العقاد،

2- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1984

3- الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، ط3، دار الفكر العربي، 1974

4-أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، 1991

5- تاريخ الأدب الأندلسي –عصر قرطبة- إحسان عباس،

6- التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار المعرف، القاهرة، 1963

7- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني

8- كتاب الأغاني، الأصفهاني أبو الفرج، ج .1

9- مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، ط1، 1961

10- مدخل إلى مناهج النقد الأدبي،

11- المذاهب النقدية، ماهر حسن فهمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة دت، دط.

12- النقد النفسي عند رتشاردز، تر: فايز إسكندر، إشراف: رشاد رشدي، مكتبة الأنجلو- المصرية د ط، د ت.

13- النص والمنهج، محمد أديوان

14- في مناهج الدراسات الأدبية، حسين الواد

15- فن الشعر، أرسطو، تر: عبد الرحمن بدوي

16- الشعر والشعراء، ابن قتيبة

17- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق وتعليق: طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1956

18- عالم الفكر، مج 25، ع3، يناير، مارس، 1997، المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، الكويت.

19 - Charles Mauron ; introduction à la psychanalyse de Mallarmé ; éditions de la baconnière ; neufchâtel (suisse) 1968